أنشودة العصفور

هـبَّ فزعًـا مـن نومـه.. جاهـد أن يلـتقط أنفاسـه المتلاحقة.. بينما لسانه ينطـق بالـشهادتين.. وبعـد قليـل، رُدَّت إليه روحه وهدأ نوعًا.. جعل يتلفت حوله يبحـث عن لا شيء.. وما زال يتمتم.. فـرك عينيـه حـين تثـاءب بـصوت مـسموع.. وضـع يمنـاه عـلى جبهتـه متأوِّهًـا.. سحبت يسراه الساعة من تحت الوسادة.. قربهـا لعينيـه.. ما زال الوقت مبكرًا! عاد بذاكرته إلى ليلة البارحة.. لقـد هجع إلى النوم في ساعة متأخرة.. إلا أنه ظل يتقلب عـلى فراشـه.. ويـستحلف النـوم أن يغـشى عينيـه.. ويتـأبَّى النوم.. ولم يدر متى أصابه الكرى.. كانت ليلة قلقة..

ويعود ليسائل نفسه عما أيقظه.. و.. وعما كان يقلقه.. لم تسعفه ذاكرته.. فأفكاره مشوشة وفي رأسه طنين.. ألقى الساعة وأبعد الغطـاء.. وقـام يجـر رجليـه إلى النافـذة.. فتحها فامتلأت الحجرة بالضياء.. أخفى عينيه بأصابعه.. وقف للحظات ينظر إلى الشارع والمارة.. احتوت راحتـه ذقنه.. وارتكز بمرفقه عـلى الحافـة وأصـابه شرود.. ظـل قليلًا هكذا.. انتفض فجأة حين تذكر شيئًا!.. لعلـه كـان سبب قلقه ويقظته على هذا النحو.. ومـا لبـث أن جـرى صوب باب الشقة.. وفتحه وقفز عـلى الـدرجات.. كـاد ينزلق لولا تشبثه بـ«الـدرابزين».. جـرى - أيـضًا - في الشارع.. دلف إلى حانوتٍ مجاورٍ وعيناه على الهـاتف.. لم يستأذن صاحبَ الحانوت الذي رماه بنظـرة غـيظ.. رفـع السماعة، وأدار القرص بيد مرتعشة.. انتظر ثـوانيَ عـدَّها

ساعات.. وَشَى وجهه الذي شحب عن رهبته.. بلع لعابه وتنحنح.. غمغم كأنما يجرب صوته.. ركز جميع انتباهه.. فشل أن يبدو متماسكًا.. رفع صدره.. ما زال صاحب المحل يحدجه بنظرات الغيظ.. أتى إلى سمعه صوت نسائي.. تنحنح وسعل.. كادت السماعة تسقط من يده المرتعشة.. خرج صوته خشنًا.. كم كان يطربه هذا الصوت كلما غنى أو دندن!

- نادي القصة.. أريد أن.. أن أستفسر منك.. أقصد من سيادتك.. عن.. عن نتيجة المسابقة..

- ...

- نعم.. مسابقة القصة القصيرة..

انتفض قلبه.. وانتفضت السماعة في يده.. وصاح قائلًا:

ظهرت.. بحق؟

- ...

ألقى السماعة بينما الصوت النسائي يردد:

- خدمة أخرى يا فندم.. آلو.. آلو؟!

- تقافز.. ولكن عاد لينقد صاحب الحانوت أجر المكالمة.. بينما الثاني يهز رأسه ويمصمص بشفتيه مستغربًا!

دخل من باب الشقة المفتوح قاصدًا الحمام.. ارتفعت عقيرته بأغنيته الوحيدة التي يترنم بها كلما تهاجم السعادة قلبه.. فتح الصُّوان.. تراءت له حُلّة المناسبات على حد تسميته.. اتسعت ابتسامته.. وانبرى يرتديها بعناية فائقة..

- غـدًا.. سـأقتني مـن الملابـس أفخرهـا وأبهاهـا وأثمنها.. و.. ألقى نظرة على مظهـره وهندامـه.. ابتـسم ابتـسامة رضـاء.. خـرج مـن بـاب الـشقة، ولم ينس أن يغلقه.. نزل الدرج متبخترًا ولسان حاله يقول:

- ليس على الأرض إلا أنا..

وقف أمـام البـاب الخـارجي ينتظـر إحـدى عربـات الأجرة..

- يجب أن أستأجر عربـة في هـذا اليـوم.. إنـه يـوم مشهود في عالم الأدب.. فلا يصح لكاتب عظـيم مـثلي أن ينحشر في وسائل المواصلات كسائر الخلق.. غدًا سـأبتاع عربة فارهة كمشاهير الكتَّاب.. أجل..أجل ..

أشـار إلى إحـداها فتوقفـت.. فـتح بابهـا بعـد عـدة محـاولات!.. جلـس في المقعـد الخلفـي رافعًـا صـدره في خيلاء.. وتعاقبـت أحلامـه.. وتتـابع شريـط الـصور في خياله.. إنه في الحفل العظيم الذي سيقام من أجل تـسلُّم الميدالية الذهبية.. ها هو صاعدًا إلى المنصة.. محيـاه مفعـم بسعادة يشوبها الخجل.. الجمهور الغفـير يـصفق مهلـلًا ومهنئًا.. إنهم يهتفون باسمه..

وقفت العربة أمام نادي القصة.. ترجل مـن العربـة.. دس في يد السائق ورقة مالية.. لم يلتفت إلى السائق الـذي رمقه في إعجاب.. واصل تخيلاته.. وقـف لحظـات أمـام البوابة الحديدية الـضخمة.. خطـا إلى الـداخل مـصطنعًا الثبات.. جعل يتلفت يمينًا ويسارًا وعـلى مرمـى البـصر والابتسامة العريضة تملأ وجهه.. وكأنه يرد على الجماهـير

التي احتشدت لاستقباله وتهنئته.. توقف.. نظر مليًّا إلى ما أخاله الصف الأمامي.. حيث يجلس عمالقة الأدب.. تخيل أنه بينهم..

غدًا تنعقد الجلسات والندوات ليناقشوا أدبه، ويعددوا أسباب نبوغه.. وفي القريب، ستزين صفحاتِ الصحف والمجلات سطورُ قلمه الذهبي.. ستهرول خلفه كل أجهزة الإعلام.. ويكون حديث الناس.. كل الناس.. اتجه إلى الدرج.. تمنى أن تكون على الحائط المجاور مرآة ليرى وجه الكاتب.. الفائز الأول.. وقف على إحدى الدرجات يعيد إصلاح حُلَّته ورباط عنقه.. مرّر راحته على شعره.. انسابت إلى أنفه رائحته العطرة.. أمال عنقه فارتفعت أنفه.. رسم على شفتيه ابتسامة ساخرة.. كما أودع التعبير نفسه عينيه.. وقف أمام باب الصرح.. دلف مبعدًا يديه عن جانبيه كأنما تأهب للتحليق في سماء الأدب.. فوق الحشود!

ألقى نظرة على اللوحة النُّحاسية المعلقة في الردهة الخارجية.. نظر بعيني خياله إلى اسمه المحفور عليها والذي يشع نورًا وبهاءً!.. جعل يتفحص أركان الردهة.. دهش فلا أحد ينتظره.. أو يهب لاستقباله! وقف قليلًا لعله يأتي أحدهم.. أطلّ في الردهة الداخلية ليجدها كمثيلتها.. بلا مستقبلين.. سعى بخطوات عصبية وعقل حائر.. دلف إلى أول حجرة صادفته.. بغضب، سأل أحد الموظفين عن نتيجة المسابقة.. لم يرد.. أو أنه فضَّل الرد عمليًّا فأخرج ملفًا كبيرًا.. أخذ يتفرس في وجه الرجل.. لسانه يلعب في فمه، وفي نفسه رغبة أن يسأله عن القصة الفائزة؛ ليريحه من عناء البحث.. وعاد إلى هذيانه:

- إنه لا يعرفني!! كيف؟! ألا يعلم أنني الفائز الأول.. أ.. أو يكون موظفًا جديدًا..

بثقة، تناول الدفتر من الموظف.. ثم جلس واضعًا إحدى ساقيه فوق الأخرى.. فتح الدفتر.. والموظف يرشقه بنظرات الاستغراب..

- قطعًا، اسمي في الصفحة الأولى.. بل على رأسها لامعًا كالبدر في ليلة ظلماء.

ألقى نظرة على الاسم الأول.. تأمله.. انتقلت حدقتاه إلى الاسم الثاني.. والثالث.. دقات قلبه تتسابق مع نقلات بصره.. اختفى القمر من الصفحة الأولى.. اختلس نظرة إلى الموظف الذي ينظر إليه في برود.. قلب الصفحة الأولى ليبحث في الثانية والشك بادٍ على صفحة وجهه.. أيضًا، لم يعثر فيها على اسمه.. ولا في الثالثة.. امتعض.. قلَّب وبحث في كل الصفحات إلا الأخيرة.. احتقن وجهه.. لمعت قطرات العرق في جبهته.. تعرجت خطوط وجهه فأضافت إلى عمره بضع سنين.. أخذ نَفَسًا عميقًا كأنما يزيح همًّا ثقيلًا.. عليه أن يبحث عن اسمه في الصفحة الأخيرة.. وبالفعل، يجده في ذيلها باهتًا.. ثلج قلبه وارتعشت أطرافه.. أخير القائمة.. آخر الكتَّاب!

ملأ الغضب جوانبه، واندفع في مجرى دمائه.. كبت ثورته في صدره.. أمسك بالدفتر المشؤوم ودفعه إلى صدر الموظف الذي امتلأ عجبًا.. ورد على إهانته بهزة من رأسه تعني الاستفهام!

خرج الأستاذ صبحي من الحجرة.. الضباب من حوله.. في عينيه وفكره.. وفي نفسه.. جرَّ رجليه جرًّا.. استمر يزحف أو يتخبط في الضباب.. التفت إلى لوحة الفائزين.. من لحظات خال اسمه يضيئها.. ولكنها تبدو كئيبة جرداء.. وسرعان ما اختفت فلم يعد يراها.. أصبح في لشارع.. ما زالت على عينيه غشاوة.. وقلبه يتقافز، وطاقتا أنفه تنفث نيرانًا.. مشى يلعن حظه.. وذلك الصرح الشامخ.. الطاغية.. وهمس في نفسه:

- ظلم.. ظلم.

جعل يهرول في سيره.. ورأسه يموج.. والعربات المتسابقة تتأرجح في عينيه.. يصطدم بالآخرين غير آبهٍ بنظراتهم النارية التي تتراشق في جسده.. وغير مهتمٍّ بتعليقاتهم الساخرة.. وجد نفسه أمام سور الأزبكية.. الكتب في كل مكان.. أكوام وتلال.. كأنها أكوام من الحجارة الصماء.. وتلال من الصخر لا يُخدش.. جعل يتأملها في دهشة.. كتب هنا ومجلدات هناك.. والعناوين الكثيرة.. اشتد اصفرار وجهه:

- لقد أفنيت أحلى سنين عمري بين صنوف الكتب.. وها هي الثمرة!!

عاد إلى منزله سيرًا على الأقدام.. في حلقه غصة، وفي داخله ثورة.. وقلبه يئن.. ضرب الباب بقدمه فاصطكّ بالحائط ليرسل فرقعة شديدة.. هرول ناحية مكتبته المتواضعة.. وقف يتأملها في احتقار.. اتسعت عيناه.. ضحكت نفسه الشيطانية.. الأمَّارة.. امتدت يده بلا وعي

تجذب الكتب وتمزقها إربًا بين صياحه وكلماته غير المفهومة.. وجعل يمزّق ويقذف في فضاء الحجرة.. فرشت الأوراق والمَزْق محتوياتها.. بدت الكتب أشلاء.. وسرعان ما أخرج علبة الثقاب وعمل في الكومة نيرانًا وحريقًا.. وقف ينظر إلى ألسنتها، والمرارة تلهب حلقه.. وسرعان ما أتت النيران على الأوراق.. وانطفأت النيران.. ولم ينطفئ حريق جسده.. ولم تهدأ نفسه.. شعر بالإعياء، فجلس يتأمل كوم الرماد.. هذا الرماد هو كل ما جناه.. وما خلفه كفاح شبابه كلاهما تافهان.

شرد الأستاذ صبحي يستعيد ماضيه.. في صباه، كان يوفر كل مصروفه.. حارمًا نفسه مما يلذ في أفواه الصبية أقرانه.. كان يلتهم اللذة كلها دفعة واحدة حين يشتري كتابًا في نهاية الشهر..

وحين يجلس لمطالعته طوال شهر كامل.. لحين أن يأتي بزاد الشهر التالي.. تعددت الكتب فحفظها في صندوق كبير من الكرتون..

وغدا الصبي شابًّا يافعًا، واختنق صندوق الكتب.. فكَّر في صنع مكتبة صغيرة من الخشب المهمل.. وبالفعل، أصبح لديه مكتبة.. إنه يذكر لياليه الطويلة التي قضاها بين الكتب.. وبين أوراقه وقلمه وأفكاره.. من أجل أمنيته محا من ذهنه فكرة الزواج.. أو إنه أجَّل موعده إلى أن يقبض على أمله.. أو أن يقطع شوطًا في طريقها الشاق.. ومن أجلها - أيضًا - نأى بنفسه عن لعب الصبية ولهو الشباب.. وعزل نفسه من أجل العلا.. ولكن، ها هو صرح العلا يتقوّض وينهار..

ظل يجترّ ذكريات ماضيه تؤنسه الدموع.. وأنين مكتوم.. يكتنفه شعور بالضياع.. وكلما وقع بصره على الرماد يتحول الأنين إلى بكاء.. وإلى صياح.. حين يستعيد بخياله طريق الجحيم الذي قطعه من نادي القصة إلى حيث يسكن.. وكان ما حدث بمثابة ستار على مستقبل غامض مظلم.. كان بالأمس طريقًا معبَّدًا تحوطه الأزاهير والأنوار.

دنا الفجر.. قام يجر ساقيه حيث فراشه.. ما زال بالقرب من الرماد.. توقف حين لمح ورقة هربت من الحريق.. ولعلها استحلفت نسمة أن تنقذها من اللهيب.. كاد يمضي تاركًا الورقة لحال سبيلها.. ولكنه أراد ألا يرحمها من الفتك.. امتدت يده إليها.. كاد يمزقها.. لكن، استوقفه العنوان.. الأمل.. كاد يقهقه ولسان حاله يقول:

- كلمة خادعة.. جرَّني سحرها.. وطعنتني في الظهر لتدعني أميد وأسقط بلا جِراك.. ولن ترحمني من ضحكاتها الساخرة.. ليس بقدرتي إلا أن أرى دمي المراق.. وأن أستشعر العذاب في كل حين..

عاد ينظر إلى الكلمة.. استمر يرنو إليها.. جعلت تكبر في عينيه وتتسع حتى احتوت رؤيته.. استند على الحائط المجاور.. قرأ السطر الأول وسطورًا أخرى قليلة..

- ما زالوا يحلفون أن الأمل طريق العلا..

انتقلت الكلمة من عينيه إلى ذهنه.. بانت آثارها على وجهه.. فخطوط الكآبة تتبدد عنه تدريجيًّا.. واللون الأحمر يسري رويدًا في صفحة وجهه.. والصفاء يزحف إلى جبهته.. والهموم تتصاعد من صدره.. تأمّل رماد كتبه.. أتى إلى سمعه صوت الأذان.. طفرت من عينيه دموع حارة.. خرج من الحجرة ومن الشقة.. صعد إلى سطح المنزل والورقة ما زالت في يده.. وقف يتأمل انبلاج الصبح أو انزواء الليل.. تلفحه نسمة هواء أزاحت من نفسه بقية همومه.. الضياء يملأ الدنيا.. الأشجار تتمايل في رقة.. والطيور تشدو.. العالم رائع.. تعمه الفرحة ويزينه الجمال.. وها هي الشمس تشرق في عالمه.. وكانت بالأمس تغرب مودعة.. وها هو عصفور صغير جميل.. يروح ويغدو بينما يشدو بأنشودة يرسلها عبر النسيم.. رآه يلقي بغصن رفيع.. ثم يجدُّ ليأتي بآخر ويضعه بجانب الأول.. إن هذا العصفور لا يلعب! إنه يعمل! يعمل ويسلي نفسه بالغناء.. إنه يبني عشًّا جديدًا.. لعل حدأة طردته من عشه.. أو أنه يبني عشًّا أكبر ليستقبل فيه صغاره.. جعل يتأمله.. العش ينمو مع العمل المتواصل.. وفجأة، اشتدت الرياح فطار العش.. كم حزن من أجل العصفور! لقد ضاع مجهوده بلا فائدة.. ويعود العصفور ليرى ما أصاب عشه.. وأيضًا، لم يسكت عن الغناء.. ولم يندب حظه.. وإنما عاد من جديد يأتي بالأغصان..

- يا سبحان الله!!

تذكر ما كان بالأمس.. سقطت من عينيه الدموع.. ثم ودّع العصفور إلى لقاء في الغد.. ونزل إلى عشه يحتضن الورقة.. الأمل.. وجلس أمام مكتبه وأمسك قلمه، وفي صفحة جديدة بيضاء.. كتب عنوان قصته الجديدة.. أنشودة العصفور..